سلسلة مطويات شبكة بينونة

الخوف من الله

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE
@Baynoonanet

الشيخ
د. أحمد بن مبارك بن قذلان المزروعي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، أما بعد..

اليوم أقف معكم وقفةً في مقامٍ عظيمٍ، فأبتدئ في هذه الكلمة بقصّةٍ عظيمةٍ رواها البخاري ومسلم [1] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ -يعني بالمعاصي والذنوب والسيئات ممن كان قبلنا-، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا» -انظروا إلى الموقف: يوصي أبناءه وصية، وجاء في بعض الروايات: «أَنَّ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، رَاشَهُ اللهُ مَالًا وَوَلَدًا، فَقَالَ لِوَلَدِهِ: لَتَفْعَلُنَّ مَا آمُرُكُمْ بِهِ أَوْ لَأُوَلِّيَنَّ مِيرَاثِي غَيْرَكُمْ» [2]، المهم أنّه طلب منهم إذا مات أن يحرق، ثم بعد الحرق إذا بقي منه شيءٌ أن يسحق، يُذرى في الرياح، ويرمى في البحر، لماذا؟ قال: «فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا».

«قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ -كل ما كان قد أحرق ورمي في تلك الرياح على البحر وعلى الأرض أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأرض والبحر فجمعوا ذلك الحطام، فإذا هو قائمٌ بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ»، وفي رواية قال: «مَخَافَتُكَ»،

(١) البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).
(٢) صحيح مسلم (٢٧٥٧).

قال رسول الله ﷺ: «فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ».

هذه القصة العظيمة تبين لنا مقامًا عظيمًا وأُسُسًا مهمّة، منها:

● **الفائدة الأولى:** رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده، فإن ذلك قد أسرف على نفسه، وفعل عند موته ما فعل، فغفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، بسبب ماذا، بسبب عبوديةٍ قامت في القلب، وسأقول لكم ما هي هذه العبودية.

● **الفائدة الثانية:** قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه مهما كان الإنسان حُطامًا فُتاتًا رمادًا تحول إلى تراب، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جامعه وسائله.

● **الفائدة الثالثة:** أرجع معكم إلى العبادة التي غُفر له بسببها مع أنه أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي، لكنها عندما قامت تلك العبادة في القلب مقامًا صحيحًا مخلصًا أذابت جميع الذنوب، فغفر الله له بقيام هذه العبادة في قلبه، وهي عبادة الخوف والخشية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عبادة الخوف والخشية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبادةٌ جليلة، ومقام من مقامات التوحيد عظيمة، لها أثرها على العبد، ولها أثرها في سير العبد إلى ربه، كما أن لها الأثر العظيم في محو الذنوب والمعاصي وتكفيرها، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان هذا المقام العظيم -مقام الخوف-: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومن جميل العبارات قالوا: «حقيقة الخوف ألا تخاف مع الله أحدًا»، وهذا مقام جليلٌ عظيمٌ، لا تخف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهنا مسألةٌ دقيقةٌ في مقام التوحيد، وهو أن الخوف على ثلاثة أنواع:

• **النوع الأول:** خوف طبيعي: يخاف الإنسان من النار، يخاف الإنسان من الأسد، يخاف الإنسان من الشيء الذي جعل الله من طبعه أن يخاف منه، فهذا يسمى خوفًا طبيعيًّا.

• **النوع الثاني:** الخوف المحرم: وهو أن يترتب على خوفك من فلان فعل معصية، أو ترك واجب، فهذا خوفٌ محرمٌ لما ترتب عليه من المحرم.

• **النوع الثالث:** خوف شركي: وهو أن تخاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يخاف الإنسان من ميت بأن يضره أو ينفعه، أو يخاف الإنسان من وليٍّ في مشارق الأرض وهو في مغاربها، لا يسمعه ولا يراه، ولا هو حاضر عنده، وإنما يخافه مخافة السر كخوفه من الله، فهذا خوف شركي.

• **النوع الرابع:** الذي هو مقام التوحيد الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الخلق ليعبدوه، وخوفهم وطمعهم، ونصب الأدلة على عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمعرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته تقيم في القلب الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيسير العبد إلى الله، يقول ابن القيم: «وكلُّ أحدٍ إذا خفته هربت منه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنك إذا خفته هربت إليه» [٣]، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عرف عظمته وجلاله انخضعت له الأعناق، وانكسرت بين يديه النفوس، وخشعت عنده الأصوات، ومن عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه سميع بصير عليم استحيى منه، وراقبه أن يقع في معصية والله يراه؛ لأنه شديد العقاب مع أنه غفورٌ رحيمٌ، يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ

(٣) مدارج السالكين (١/٥٠٩).

رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله »[٤]، لذلك كان النبي ﷺ يقول: «إِنَّ أَتْقَاكُم وَأَعْلَمُكُم بِالله أَنَا»[٥]، أيضًا العلم اليقيني بأهوال يوم القيامة، وما يكون في الآخرة من عذاب ومن أهوال ومن مواقف كانشقاق السماء، وانفجار البحار، وتساقط الكواكب، وزلزلة الأرض، ودك الجبال، وما يكون من حشر وحساب، وموقف بين يدي رب الأرباب، وتطاير للصحف، ووضع للميزان، وسير على الصراط، وما يكون في النار من شدة وعذاب، كل ذلك يقوم في القلب الخوف من الله، سئل ابن عباس عن صفة الخائفين قال: «قلوبهم بالخوف فرحة، وأعينهم باكية يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله ربنا موقفنا»[٦].

الأمر الثالث الذي يبعث في القلب الخوف من الله: تأمل حال الأمم التي خالفت أمر الله، وما رجعت إلى الله، قوم أغرقوا، وقوم أهلكوا بريح صرصر عاتية، وقوم قلبت عليهم الأرض، وأمطرت عليهم السماء حجارة، فهذا يجده الإنسان في القرآن فيخاف من الله أن يحل به كما حل بمن قد مضى، ولو رأى العبد خوف الملائكة مع عظيم خلقتها وقوتها لاستحيا من نفسه وخاف، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]، يقول ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ رَجْفَةٌ أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا

---

(٤) حلية الأولياء (٨/٨٩).
(٥) رواه البخاري (٢٠).
(٦) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/١٨٤).

لِلَّهِ سُجَّدًا» [٧]، الأنبياء كانوا يسارعون في الخيرات، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والنبي ﷺ وهو أتقى الأمة وأخشاها وأعلمها بالله «كان يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ كَأَزِيزِ مِنَ الْبُكَاءِ» [٨]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، أبو بكر أفضل الأمة بعد النبي ﷺ يرى طائرًا على شجرة فيقول: «طُوبَى لَكَ يَا طَائِرُ، تَأْكُلُ الثَّمَرَ، وَتَقَعُ عَلَى الشَّجَرِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي ثَمَرَةٌ يَنْقُرُهَا الطَّيْرُ» [٩]، فالخوف أورث الصالحين العمل، الخوف أصل كل خير في الدنيا والآخرة، الخوف من الله وكل قلب ليس فيه خوفٌ من الله فهو قلب خرب، إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات، وطرد الدنيا منه، الخوف سراج القلب يبصر به العبد الخير والشر. لكن أي خوف؟ الخوف الذي يورث العمل، يورث القرب من الله، ليس الخوف -مفهوم خاطئ عند بعض الناس- أن الخوف يسبب له القنوط، ويسبب له اليأس، ويسبب له عدم القرب من الله، وذلك بسبب أنه غلب جانب الخوف على جانب الرجاء، ونظر إلى أن الله شديد العقاب ولم ينظر إلى أن الله غفور رحيم، والإنسان لابد أن يوازن بين خوفه ورجاءه، لا بد أن ينظر إلى رحمة الله فيرجوه، وينظر إلى عذاب الله وشدة الله وعقابه فيخافه.

فالخوفُ ما أوْرَثَ التقوَى وحَثَّ على
مَرْضاةِ رَبِّي وهَجْرِ الإثْمِ والأَثَمِ

قال علي لرجلٍ من أصحابه: كيف أنتم قال: نرجو ونخاف؛ قال علي: «من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيءٍ هرب منه، ما أدري ما خوف رجل عرضت له شهوة

(٧) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، وقال الألباني: إسناده ضعيف.
(٨) رواه النسائي (١٢١٤)، وأبو داود (٩٠٤).
(٩) الزهد لابن المبارك (ص٨١).

فلم يدعها لما يخاف؟ وما أدري ما رجاء رجل نزل به بلاء فلم يصبر عليه لما يرجو؟» [١٠]، أي كيف يقول إنه يرجو الله، فإذا أصابه البلاء قنط، وكيف الإنسان يخاف، ويرى المعاصي ويقع فيها، فالخوف حفظكم الله مقامٌ عظيمٌ، وهو يحيي القلب ويسعده لأنها عبادة، وكل عبادة لها في القلب أثر على الإنسان عظيم.

وأيضًا من التنبيهات المهمة أنه ليس الخوف هو كثرة البكاء، أو التخشع أو الانكسار ظاهرًا، وإنما الخوف هو انكسار قلب حقيقة يورث عليه انكسار الإنسان ونزول دمعته، يقول إسحاق ابن خلف: «لَيْسَ الْخَائِفُ مَنْ بَكَى وَعَصَرَ عَيْنَيْهِ، وَلَكِنَّ الْخَائِفَ مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي يَخَافُ أَنْ يُعَذَّبَ عَلَيْهِ» [١١].

إذًا حفظكم الله لنذكر القصة في البداية أنه مع كثرة إسرافه ومعاصيه وذنوبه، غفر الله له بسبب خوفه من الله، وخشيته من الله، فيدل على عظم مقام هذه العبادة، وهذه العبادة أيضًا سببٌ للسير إلى الله، والسير إليه سيرًا حثيثًا، لذلك يقول النبي ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ» [١٢]، الخوف يجعل الإنسان يدلج، يعني: يسير ليلًا ونهارًا ومن عادة المسافر أنه يسير نهارًا، ويبيت ليلاً، لكنه إن كان خائفًا سار ليلاً ونهارًا، كما أن من ثمرات الخوف: أن من خاف الله خافه كل أحد، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء» [١٣]، جميلٌ هذا الأثر جدًّا، يقول: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء»، يجعل الله

(١٠) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣٨٨/٢).
(١١) رواه الدينوري المالكي في المجالسة وجواهر العلم (ص٢٩-٣٠).
(١٢) رواه الترمذي (٢٤٥٠)، وصححه الألباني.
(١٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٧٢).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له في قلوب الناس وقارًا وتقديرًا ومهابةً.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا من المسارعين في الخيرات، الذين يسيرون إلى الله بين الخوف والرجاء محبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اللهم إنا نسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل صالح يقربنا إليك.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحسن الأخلاق، وأجمل الأعمال، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا، ويغفر للمسلمين والمسلمات، وأسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفق ولاة أمرنا لكل خير، وأن يحفظر بلادنا من كل شر، وأن يديم علينا الأمن والأمان والسكينة، وأسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرفع عنا هذا الوباء.

وصلى الله على نبيّنا محمّد.